رمضان واستعادة النفس الرائدة

في مجال الحديث عن رمضان واستعادة النفس الرائدة، يجب أن نقول أن بناء النفس الإنسانية من القضايا التي لاقت عناية بالغة في التصور الإسلامي، سواءً على المستوى الروحي التعبدي أو على المستوى الريادي الحضاري؛ فالإسلام أعطى مساحة كبيرة لتلك القضية، فكان البناء الروحي بتنقية النفس من الآسار وأغلال الذنوب التي تكبّلها عن مواصلة التحليق عاليا في رحاب الملكوت والتأمل في قدرة الله (عزوجل)، وبديع صنعه في الكون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا لا يأتي إلا بعد التضرع والإخبات والإنابة لله (عزوجل) كما كان حال إبراهيم (عليه السلام) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾.

والنفس الإنسانية كالأرض التي تُسقى بالماء، فكلما سقاها صاحبها بالماء العذب كلما أنبتت أفضل الثمار، وهكذا قلب الإنسان كلما روى من الطاعات والعبادات الصالحة كما بعثت فيه الحياة وتجددت على الإنسان ملامح التقوى والفلاح، ودائمًا ما يضرب القرآن الكريم مثلا على حياة القلب بإنزال المطر على الأرض فيحيها. قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخرِجُ المَوتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ (57) وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بِإِذنِ رَبِّهِ وَالَّذي خَبُثَ لا يَخرُجُ إِلّا نَكِدًا كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ لِقَومٍ يَشكُرونَ﴾.

قال ابن القيم :" أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأنَّ أحدَهما مُعتبر بالآخرَ مقيسٌ عليه، ثم ذكر قياسًا آخر: أنَّ مِن الأرض ما يكون أرضًا طيبة فإذا أنزل عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها، ومنها ما تكون أرضًا خبيثة لا تخرج نباتها إلا نكدًا -أي قليلا غير منتَفَع به- فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تُخرج ما أخرجت الأرض الطيبة، فشبَّه -سبحانه- الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب، بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا، وشبَّه القلوب بالأرض، إذ هي محل الأعمال كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ولا تخرج نباتها به إلا قليلًا لا ينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقِله وتدبَّره بان أثره عليه؛ فشُبه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه فينبت من كل زوج كريم؛ والمُعرض عن الوحي عكسه والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَما أَنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختَلَفوا فيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ 64 وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَسمَعونَ﴾.

يقول ابن كثير : "وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء.

ونحن في شهر الحياة والبعث القلبي للإنسان من جديد، شهر القرآن والتدبر والرقي الروحي إلى معارج القَبول واليقين، والمسارعة إلى قوافل الذاكرين والمُخبتين بين يدَى الله (عزوجل)، فهذه هي الريادة الروحيَّة، التي يطالب الإسلام -دائمًا- بها ويدعو ويؤكد عليها.

فإن المعاصي والذنوب خبث، وإن الماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، والله (عزوجل) يساعد العبد الذي يرجوا ويحاول الوصول إلى الخير، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

كما أن الريادة الحضارية يؤسس لها هذا الشهر العظيم فهو ذو خصوصية معينة؛ فقد وقعت أول الانتصارات الإسلامية في هذا الشهر العظيم ، بدايةً بغزوة بدر الكبرى في 17 رمضان 2هـ ، وتوالت الانتصارات ، فهذان المَعنَيان المؤسِّسان للريادة الروحية والحضارية، دائمًا ما يحتاج الإنسان إليهما ، فكما شعر الإنسان باليأس فإن عليه تصفُّح تاريخ الأمة المشرق